السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري ما بين 1873-1962م - منطقة المنيعة نموذجا-

الأستاذ: نواصر عبد الرحمان

جامعة يحي فارس المدية

مقدمة:

تعود بداية الاهتمام فرنسا بالصحراء الإفريقية عامة والصحراء الجزائرية بصفة خاصة، إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، وذلك من أجل استكشاف أسرارها، وتمهيدا للسيطرة عليها، خاصة بعدما أصدر البرلمان الفرنسي قرار ينص على احتلال الجنوب سنة 1844م[1]، ومن تمّ بناء المراكز العسكرية واحكام القبض عليه، وبفعل زحف القوات الفرنسية بدأت مدن الجنوب في السقوط تحت قبضة الفرنسيين واحدة تلوى الأخرى رغم شراسة المقاومة التي نظمها السكان، إلى أن سقطت مدينة المنيعة[2] سنة 1873م[3]،ومنذ ذلك الوقت شرعت فرنسا في تطبيق سياسة استعمارية تخدم مصالحها بالدرجة الأولى شملت الجانب العسكري، والديني، والاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما سنحاول ابرازه من خلال هذه الدراسة.

1-السياسة العسكرية:

قامت فرنسا بتطبيق سياسة استعمارية عسكرية محكمة لضمان استمرارية سيطرتها على المنطقة، ولذلك قبل أن تبدأ في التوسع نظمت بعثات استكشافية لجمع كل المعلومات الخاص بالمنطقة، ومن بين هذه البعثات :

بعثة "دوفيرييه هنري"(Henri Duvyrier):

باشر رحلته الصحراوية يوم 8 ماي 1859م، عبر المدن التالية: من مدينة سكيكدة، بسكرة، القرارة، غرداية، متليلي، ثم إلى المنيعة وصلها في 09 سبتمبر

1859م، حيث يقول **دوفيريي**:"قد تبدو رحلتي إلى القليعة لأول مرة هزيمة، حيث طردت من هذه المدينة، واضطررت تحت التهديد إلى الخروج منها ليلا في ظروف مشينة، ومع ذلك فأنا أعتبر هذه الرحلة ناجحة ...فأنا قد واجهت الشعانبة الذين أقسموا أنهم سوف يذبحونني، وقد أقمت يوم و ليلتين في هذه المدينة شبه سجين، ولكن ذلك لم يضايقني...فقد أدركوا أنه لا يمكن تخويفي، والانطباع الذي أحمله هو أن هذه الطريق انفتحت"(4).

نستنتج من هذا كله مدى التركيز الكبير الذي أولته فرنسا إلى مدينة المنيعة وذلك لتوسطها الجزائر، ويمكن اتخاذها نقطة انطلاق نحو بقية مناطق الواقعة إلى جنوب منها بداية من هضبة تدميت، وستطلق عليها فرنسا فيما بعد لؤلؤة الصحراء، ويعكس لنا النص مدى وعي سكان المدينة بما تخطط له فرنسا من وراء هذه البعثات الاستكشافية، لذلك هددوا "**دوفيريي**" بالذبح إن وجد مرة ثانية في المنطقة وحرصوا على عدم تنقله بحرية في المدينة، ومنعوه من الاحتكاك بالسكان حتى لا يتمكن من جمع كل المعلومات الخاصة بالمنطقة.

يواصل هذا الأخير طريقه إلى مدينة غدامس التي رفض سكانها استقباله، وحاول استدراج التوارق وألف كتاب بعنوان " توارق الشمال"، أصيب "**دوفيريي**" فيما بعد بمرض فقدان الذاكرة.

وهناك مستكشف آخر هو الجنرال "**قاليفيه**" الذي غادر مارسيليا يوم 6 ديسمبر 1872 ممتجها نحو الجزائر قاصدا منطقة الجنوب، فمر بمدينة الأغواط، غرداية، متليلي، وبدأ رحلته الحقيقية على حسب قوله في4 فيفري 1873م: "بدأت أخيرا الرحلة الاستكشافية الحقيقية حيث أتواجد في أصقاع ليست معروفة كثيرا من المنيعة إلى عين صالح". لم يستقبل من طرف السكان لكنه قدم معلومات كثيرة وقيمة للسلطات الفرنسية.(5).

مشروع السكة الحديدية:

اهتمت فرنسا بمد السكك الحديدية عبر الصحراء وذلك من أجل استغلال ثرواتها، لكن المشروع لم يصل إلى كامل ربوع الصحراء وتوقف عند تقرت وبشار، وذلك للتكاليف المالية الكبيرة، وصعوبة التضاريس لوجود مشكلة الرمال ومن هذه البعثات الاستكشافية العلمية التي وصلت بدراستها إلى مدينة المنيعة بعثة "شوازي"1879م التي خصت المنيعة بدراسة للأهمية الاستراتيجية وشملت الدراسة المياه الجوفية، الزراعة وتوصلت إلى معلومات قيمة بما فيها معلومات من الناحية التاريخية مكتشفة قبر يعود "للغرمنتيين" مما جعلها ترجح أنّ الذين بنو القصر القديم لهذه المدينة يعود لهؤلاء الأخرين(6).

إنشاء المراكز العسكرية:

عملت فرنسا على إنشاء مراكز وحصون عسكرية لمراقبة كل التحركات الخاصة بسكان الصحراء بما فيها مدينة المنيعة والمناطق المحيطة بها ومن بين هذه النقاط العسكرية: برج "ماكماهون" 1892م على مسافة 180 جنوب شرق المنيعة، وبرج "حاسي مية"، وبرج "ميريبل" على مسافة 140كلم عرب المنيعة، واستمرت في وضع المراكز العسكرية كلما دفعتها الضرورة لذلك خاصة أثناء الثورة التحريرية 1954م سوآءا داخل المدينة أو خارجها، مثل مركز زرارة، ومركز حاسي لعبيد، ومركز المراقبة بالقصر القديم، معتقل في مركز للتعذيب،...(7).

إنشاء المناطق المحرمة:

تم انشاء العديد من المناطق المحرمة للحد من تحركات السكان، وتسهيل عملية مراقبتهم ومحاصرة الثوار، ومن بين هذه المناطق المحرمة التي تشمل خاصة مناطق الآبار من بينها: حاسي علي بن حيمودة، حاسي المستور، وحاسي المحنة، وحاسي الكسكسي، ثمّ أضيفت آبار أخرى مثل: حاسي الحنانة، وحاسي عبازة، وحاسي تماسين، وحاسي مبروكة، وحاسي السبتي وغيرها من الآبار، وذلك

لعرقلة تنقلات المجاهدين عن طريق تشديد الخناق على مراكز التزود بالماء، وكل هذه السياسة العسكرية وجدت مقاومة من طرف الثوار الذين عملوا على كسر هذا الحصار، وهذا ما أدى إلى اشتباكات عديدة مع العدو مثل معركة العرق الغربي سنة 1957موغيرها من المعارك(8).

2- السياسة الدينية: وتتمثل في الآتي:

سياسة التنصير في مدينة المنيعة:

النشاط التبشيري والحركة الاستعمارية متلازمان لأن هدفهما بسط السيطرة المادية والسيطرة الروحية والفكرية، وبالتالي ضرب مقومات الشخصية الجزائرية، واعتبر البعض أن مسار الحركة الاستعمارية لإفريقيا يعكس أهمية الإرساليات المسيحية إلى درجة أن هؤلاء تبوؤوا مكانة الاستعمار(9)، وعملت فرنسا من الوهلة الأولى بالجزائر إلى تمسيح العمران قبل تمسيح الأرواح استهدفت المساجد من تدمير لبعضها مثل مسجد السيدة بالجزائر العاصمة، وحولت مساجد إلى كنائس مثل مسجد "كتشاوة"، والبعض منها إلى اسطبلات للخيل أو كمراقد للجيش وقامت بمصادرة ممتلكات مصلحة الأوقاف لضرب المؤسسات الدينية في أهم مصدر مالي تتمول منه، وقامت بغلق بعض الزوايا لكونها مصدر تحريض ضد الاستعمار(10).

وكانت من بين السياسات التي اتبعها بعض رجال المؤسسة العسكرية الفرنسية مثل الجنيرال "بيجو" ويظهر ذلك لمّا سلم بعض الأطفال الجزائريين إلى أحد الآباء وقال له :"حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار"، وقال أيضا :"إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين"(11).

مدينة المنيعة بدورها لم تسلم من النشاط التنصيري الفرنسي، ومن بين الطرق التي استعملتها في المنطقة، إرسال رجال الدين لجمع المعلومات الكافية عن

المناطق التي تريد التوسع على حسابها، وقد تعرض رجال دين المسيحيين إلى القتل على يد سكان الصحراء إلى الجنوب من مدينة المنيعة، وذلك بسبب الرفض الكبير لوجودهم في المنطقة، ودراية السكان بنواياهم الخفية[12].

ومن بين الأعمال التنصيرية، والأساليب المتبعة في المنيعة فهي متعددة مها:

– بناء دار للأيتام في وسط المدينة وذلك حتى يشب على الدين المسيحي، وهؤلاء الأطفال من أمهات جزائريات تنصرن جمعتهم من مناطق عدة عبر الصحراء الجزائرية، وتزوجن من عسكريين فرنسيين تكفلت السلطات الفرنسية برعايتهم.

– إقامة أماكن لتعليم النسيج والخياطة عرف هذا المركز في مدينة المنيعة بـ: (لسورات) (les seurs)، وذلك من اجل استقطاب عدد كبير من البنات والنساء، وهي وسيلة ناجعة لإخراج المرأة من بيتها والتقرب منها، واستعملوا طريقة أخرى وهي التطبيب عن طريق أخوات ممرضات يعالجن النساء، ومنه التمكن من الدخول إلى البيت، وهذه الطريقة شجعها كثيرا "لافيجري".

ومن الطرق التي استعملتها فرنسا في التنصير هي منح أراضي فلاحية للذين تنصروا وأتت بهم من مناطق عدة من الصحراء الجزائرية وأسكنتهم مدينة المنيعة، وقبل أن تقوم بذلك خصصت لهم حقولا أطلقت عليها اسم "حقول جوزاف"، وقسمتها إلى هكتارات، وكل هكتار مجهز ببيت، ومخصص له نصيبه من الماء الآتي من البئر الارتوازي الذي حفرته، وأكثر من ذلك أنّ هذه الحقول مخططها متناسق ووضعية الكنيسة التي بنيت سنة 1890م بمنطقة بلبشير، وجهزت هذه المنطقة بمركز استشفائي تعليمي[13]، ووضعت فيه أخوات لتعليم هؤلاء "المستغورين" أو "المطورنين"،[14] ومن بين الأخوات اللواتي أشرفنا على تسيير هذا المركز ثلاثة: الأخت "تريس" مهمتها العلاج، والأخت "ماري لاغراس" للتعليم، والأخت "ماري دومونسيرا" لخدمات مختلفة[15].

وعدد العائلات المستفيدة من هذا المشروع التنصيري الجهنمي25 عائلة، وهؤلاء كانوا من جهات مختلفة من الصحراء من: طلمين، طيط، عين صالح، أقبلي، رواغة ورقلة، أذكر على سبيل المثال المبنى الذي تسكن فيه عائلتي في بلبشير كان ملكا "**لموريس جان**" مع زوجته من رواغة ورقلة والتي جاءت في زيارة تفقدية لبيتها سنة 1980م، والبيت المقابل كان لعائلة مستغورة تلقب بيت ماتيو، وعائلات أخرى مثل جون طارطرا وعائشة سيسيل وغيرهم، وحاول هؤلاء الآباء التقرب من الأهلي عن طريق توزيع المواد الغذائية كالشاي، والخبز،...مثل ما كان يفعل الأب "براليوم" في الأربعينيات من القرن العشرين متنقلا بحماره عبر الاحياء(16).

السياسة التنصيرية لم تنجح في مدينة المنيعة مثلها مثل بقية المناطق الجزائرية، رغم المجهودات والأموال الكثيرة المخصصة لهذا الغرض، ويعود السبب لتمسك الأهالي بدينهم الاسلامي، والبصمة التي تركها الشيخ "سيد الحاج يحي" مورثا عدد كبير من تلاميذه نخوة الدفاع عن الدين الاسلامي، والدور الكبير الذي لعبته بعض الزوايا مثل زاوية سيد الحاج بحوص.

3-السياسة الاستعمارية الاقتصادية في المنيعة:

عملت فرنسا على اتباع سياسة اقتصادية تخدم الاقتصاد الفرنسي بالدرجة الأولى، والمعمرين بالدرجة الثانية، ومن الوهلة الأولى تبين لها بأنّ مدينة المنيعة تتوفر على امكانيات اقتصادية هائلة، بما فيها الموقع الاستراتيجي كونها تتوسط الصحراء، وطبيعة مناخها الذي يساعد على انتاج البواكر من المنتوجات الفلاحية خاصة الفاكهة، وتتوفر على مياه جوفية باطنية عذبة على طول مجرى "وادي صغر" الذي ينطلق من جهة جبال الأطلس الصحراوي و منطقة البيض حتى المنيعة التي تعد مصبا له(17).

قامت فرنسا بعدة مشاريع اقتصادية من بينها:

أ- حفر الآبار الارتوازية:

قبل أن نستعرض الاستغلال الفرنسي للمياه الجوفية في المنيعة، نتعرض للطرق المتبعة من طرف السكان في استخراج المياه الجوفية لاستعمالها للشرب وفي الزراعة، في البداية اعتمدوا على طريقة الفقاقير التي لعبت دورا كبيرا في فترة المملكة الزناتية، فقد وجدت بالقرب من العرق الغربي تستعمل مياهها في ري حقول منخفضة الأرضية الموجودة في الحمادة، لكن الفقاقير اندثرت بسبب مجيء القبائل العربية للمنيعة واستقرت بها فحفرت الآبار بالقرب منها فضعف منسوب مياهها، وتم التخلي عنها بسبب حفر الفرنسيين للآبار الارتوازية، ومن بين "الفقرات" التي كانت موجودة بالقرب من منطقة سانت جوزاف بمنطقة بلبشير وتمر عبر حقول الأخوات البيض، لذلك تقول بعض الدراسات الفرنسية أنّ "الفقرات" اندثرت قبل مجيء الفرنسيين الذين وجدوا أثارها، و هذا ما أقرته بعثة "شوازي"سنة1898م[18].

إضافة للفقاقير وجدت أبار تقليدية التي تستخرج مياهها عن طريق اليد أو الدواب بالقرقاز[19]، والأمر الذي ساعد على وجودها قرب المياه الجوفية من السطح على عمق ما بين 1 متر إلى 4 متر على حسب المنطقة تبعا لمجرى الوادي، ووجد مها عدد على حسب الدراسة التي قامت بها بعثة "شوازي"، بداية من منطقة "سانت جوزاف" (في بلبشير) حتى حاسي الغارة[20].

قامت فرنسا بدراسة معمقة للشبكة الهدروغرافية للمنيعة متتبعة بداية وادي صغر من الأطلس الصحراوي حتى مصبه بمدية المنيعة، فوجدت بأنها تتوفر على مخزون هائل، بل من خيرة المياه العذبة الجوفية، وهذه المياه الجوفية تتوفر على ضغط باطني يمكنها من الصعود إلى السطح دون آلة، وهذا يوفر عليها مصاريف الطاقة، فشرعت في وضع مخطط لحفر الآبار الارتوازية بداية من سنة 1891مفي

منطقة بلعيد وبلبشير وحاسي القارة في عهد الحاكم العسكري (لامي)(Lamy)، واستمرت في الحفر بين الحين والآخر حتى سنة 1955م فبلغ عدد الآبار المحفورة 23 بئر و الجدول الآتي يوضح ذلك[21]:

البئر الإرتوازي	سنة الحفر	العمق(متر)	البئر الإرتوازي	سنة الحفر	العمق(متر)
بلعيد(قديمة)	1891	55.15 (انسداد)	حفرة العباس	1930	88.39
بلبشير	1891	68	تين بوزيد	-	102.17
حاسي القارة	1891	81.10	سانت جوزاف	1931	126.62
بادريان	1893	78	الحاجة حليمة(جديدة)	1948	151
فوآتي	1893	83.6	بلعيد(جديدة)	1949	126.70
طلحاية	1893	83	حاسي القارة(جديدة)	1950	141
الآباء البيض	1894	77.5	شارل دوفوكو(الكنيسة)	1953	151.50
الحاجة حليمة	1896	81 (انسيداد)	بوخشبة(دوار الخشب)	1954	160
الجيني	1898	65.30	مول قندوز	1954	155.4
باطروشي	1907	70.5	المطار	1955	100.2
تاغيت(قديمة)	1908	-	تاغيت(جديدة)	1955	123.4
قصر بلقاسم	1908	-			

يعكس لنا الجدول التوزيع الجغرافي المحكم لهذه الآبار، بحيث تتوزع على حسب الأراضي المراد استصلاحها، وفي نفس الوقت يستفيد منها السكان في الشرب، اضافة إلى ذلك أن عمق الجيب المائي في مدينة المنيعة قريب من السطح فهو يتراوح ما بين 55م و155م، ويعطي هذا العمق كمية ضخ للماء عالية خاصة في البداية التي وصلت حتى 8500ل/دقيقة في دوار الخشب،و6500ل/دقيقة في حاسي القارة، و2900ل/دقيقةفي بلبشير، واستقرت كمية الضخ لهذه العيون المائية حتى سنة 1955مابين 250ل/دقيقة كحد أدنى إلى 6500ل/دقيقة كحد أقصى وذلك على حسب موقع كل عين من العيون وتعطي في مجموعها كمية ضخ للمياه 29530ل/في الدقيقة حسب الدراسة التي اجريت سنة 1955م، مما يوحي بالكمية الهائلة للمخزون المائي الذي تتوفر عليه مدينة المنيعة والذي يتغدى من مياه الأطلس الصحراوي[22].

هذه الامكانيات الزراعية من وفرة للمياه والتربة الزراعية التي قامت مياه الوادي على تسميدها عند جريانها المفاجئ، ووجود هذه المساحة الزراعية في مستوى منخفض ما بين العرق الغربي غربا والجبل شرقا وشمالا، مما وفر لها درعا طبيعيا واقيا من الرياح المضرة للمحاصيل الزراعية، كل هذا شجع فرنسا على أن تركز مجهوداتها على اتباع سياسة زراعية خاصة بمدينة المنيعة، وجعلت منها مركز تجارب مثل منطقة الواجدة والمزرعة البلدية ببدريان وحقول سانت جوزافببلبشير وأنشأت مشتلة بلعيد.

قامت فرنسا بتعيير للتربة الزراعية لمعرفة درجة خصوبتها وما ينبغي اضافته لاستدراك النقائص، ومن بين هذه الدراسات الخاصة بالزراعة دراسة (شوفاليي) (G.Chovalier) سنة 1934م، ووضعت خريطة خاصة بحفر الخنادق(drainage) من أجل امتصاص الماء الزائد عن التربة وهذا ما قاله السيد (**ديرون**) (**Durand**): "في جميع الأحوال هناك ضرورة استخدام الخنادق لامتصاص الماء الزائد ونبعد ضرر الأملاح للمزروعات"، لأن المياه بتبخرها تزيد من كمية الأملاح مشكلة في النهاية بما يعرف بالسبخة، لذلك تداركت هذا لوضع من البداية بوضع هذه الخطة المحكمة، والتي تعدّ بالفعل تأسيسية للزراعة في مدينة المنيعة، وتضمن استمرارية وحماية لها[23].

وفرة المياه أدت إلى توسيع مساحة الأراضي الزراعية، فلما جاء الفرنسيون إلى المنيعة وجدوا عدد قليل من النخيل يعتمد على السقي التقليدي عن طريق بئر القرقاز، ونصف هذا النخيل مهجور، في حين وصل عدد النخيل سنة 1956م إلى 128,080 نخلة، وبالتالي حولتها إلى مستثمرات بتكلفة قدرت 5000 فرنك في المتوسط للهكتار الواحد بمعدل 100 نخلة في الهكتار الواحد[24].

ب-التركيز على المحاصيل الزراعية الصناعية التجارية:

لم يقتصر النشاط الاستعمار الزراعي على التمور وإنما شمل منتوجات زراعية صناعية تجارية أخرى مثل زراعة أزهار العطور، والحوامض، حيث خصصت لها هكتارات معتبرة كتجربة أولية ونجحت في ذلك، والذليل على ذلك اختيار مدينة المنية لعقد ملتقى عرف بملتقى الأزهار والبرتقال في الصحراء 1930م.

المؤتمر الدولي للأزهار في الصحراء بمدينة المنيعة29جانفي1930م:

قبل أن شرع في دراسة هذا المؤتمر نشير هنا إلى سنة 1930م سنة مهمة بالنسبة الاستعمار الفرنسي متمثلة في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر، واعتبروها بداية عهد جديد من الانتصارات، وزاد اقتناعهم بأنهم سيظلون محتفظين بالجزائر إلى الأبد، وبذلك تشجعت فرنسا لتوسيع استثماراتها الاقتصادية ومن بينها الزراعية[25].

- أعضاء الملتقى:

حضر المؤتمر أزيد من 40 شخصية من مختلف الاختصاصات السياسية والعلمية والعسكرية، وحضي المؤتمر بتغطية اعلامية مثل جريدة التايمز، وجريدة "لو فيغارو" وصحف أخر. ومن بين الشخصيات التي حضرت المؤتمر: الحاكم العام الفرنسي "بياربورد" (Pierre Bordes)، والقائد العسكري "كوفي" (Cauvet) ضابط الشؤون الأهلية، وهو من الفرنسيين الأوائل الذين استكشفوا الكثير من المناطق الصحراوية، وأساتذة جامعيين من الولايات المتحدة الأمريكية التي مثلها "داوسون" (M. Dawson) ممثل المؤسسة الزراعية، وعن بريطانيا "ماجورشيب" (Major Chip) ممثلا لشركة الملكية الزراعية، وعن ألمانيا "فريكمان" (Frikmane) أستاذ بالمدرسة العليا للزراعة ببرلين، و"دولافراغ" (de la Frague) ممثل شركة أسفار ونزل شمال افريقيا، وله دراية كبيرة بالصحراء من تجواله فيها لمدة 20 سنة، وشخصيات أخرى مختصة في استثمار

الأزهار والبرتقال، ومجال النقل البري والجوي، وصناعة المواد الكيمياوية والأسمدة الزراعية[26].

- أشغال الملتقى:

افتتح المؤتمر "ركار" (M.J.H.Ricard) المكلف بتسيير فعاليات المؤتمر بطرح ثلاثة أسئلة: من نحن؟، أين نحن؟ لماذا نحن هنا؟ مجيبا بمخطط عمل بداية الملتقى، والأعمال التي يجب مباشرتها، وعرف بالأماكن الصحراوية، من أجل ادخال الصحراء في طريق زراعي علمي جديد يؤهلها لأن تكون مكان خصب خاصة مدينة المنيعة مركزا على الأزهار والبرتقال كقاعدة اقتصادية في السياسة الزراعية للجنوب الجزائري، وهذا ما يتوخاه من أعضاء المؤتمر وما يقترحونه من أراء وقواعد علمية ومادية ترسم خطة أولية لإنتاج الأزهار والبرتقال في الواحات الصحراوية ومنه تمدين المساهمة في زيادة تمدين الصحراء.

أعمال فرنسا المتعلقة بزراعة الأزهار والبرتقال في منطقة المنيعة شرع فيها قبل هذا المؤتمر أي منذ مجيئ الفرنسيين لها، وعملوا على توفير مقومتها المادية والبشرية، وأردوا توسيعها عن طريق دراسة علمية انطلاقتها هذا المؤتمر.

- مظاهر زارعة الأزهار و البرتقال:

نظرا لتوفر شروط زراعية ومناخية مشجعة منها: التربة الخفيفة، والماء العذب، وهواء مواتي، ودرجة حرارة مناسبة هذه المكانيات شجعت فرنسا على ادخال الكثير من أنواع الأزهار التي تستجيب للشروط المذكورة سابقا، ومن بين هذه الأزهار "زهرة دو دماس" (de DAamas) التي كانت تسمى في فرنسا قديما بزهرة غليكا (Gallica)، وكانت تزرع في سوريا والهند، والاحصائيات تقر بأنّ 1 هكتار من هذه الأزهار تنتج بمعدل 3000 كلغ. ومن بين الأزهار وجدت زهرة الباي والتي تسمى "دماسونا" (Damascena) تحتوي على كميات هائلة من العطر، وهي تزرع كذلك في بلغاريا خاصة واليونان، و"دماسونا" شمال افريقيا

أكثر عطاءا للرحيق لطبيع المناخ التي استجابت لها، ومن بين الأراضي التي خصصت لزراعة هذه الأزهار نجد مشتلة "بلعيد" وحديقة مركز الشؤون الأهلية التي حظيت بعناية كبيرة من طرف ضابط الشؤون الأهلية "كوفي"، بالإضافة إلى أراضي أخرى، ومن بين الأهالي الذين نجحوا في زراعتها "عبازة محمد" منطقة مزاب استطاع أن يحول مساحة معتبرة لزراعة الأزهار وكل أنواع البرتقال، بل كل أنواع أشجار الفاكهة بمجهوداته الخاصة طيلة 30 سنة قبل انعقاد المؤتمر لأن الزيارة الميدانية التي نظمها المؤتمرون لمزرعته كان في قمة عطائها، وهي نموذج حي شجع على الاستمرارية في هذه الزراعة، وهذا مجعل أحد الضباط الذين حضروا المؤتمر أن ينصح بعض المهتمين بالاستثمار الاقتداء به وسمى على سبيل المثال"مادام برار"(Madame Berard)، والمشرفي على حديقة نزل "ترونس أتلنتيك"(Transatlantique) وغيرهم من الحاضرين[27].

- **أهداف زراعة الأزهار والبرتقال في المنيعة:**

من خلال النتائج التي توصلت إليها فرنسا في مجال الأزهار والبرتقال، تبين لها توسيع المساحات الخاصة بها، وذلك من أجل ايجاد مصدر مهم لتموين مصانع العطر وعصير البرتقال في فرنسا بالمادة الأولية خاصة العطر، وذلك للأرباح الكبيرة التي ستحققها، بل أكثر من ذلك العمل عل تقطير سائل العطر في مكانه أي المنيعة، حتى تضمن عملية نقله بسهولة من حيث طريقة وكمية نقله، وعملت على التركيز للإتيان بآلة تقطير (Alambic) للمنطقة مع توفير وسائل النقل، وهذا ما صرح به الحاكم العام "بيار بورد"، بأن تكون المنيعة أول من يدشن أول تجارب تقطير عطر الأزهار، بل أكثر من ذلك عملت تهجين فصائل خالصة مخصصة للمنيعة مثل زهرة الشاي، ومن الأهداف التي رسمتها فرنسا من وراء هذه السياسة الزراعية الصناعية التجارية هي ايجاد مكان خالي من الامراض التي تعرضت لها محاصيلها في العديد من مزارعها سوآءا على مستوى فرنسا، أو على مستوى مستعمراتها، ونذكر على سبيل المثال لما تعرض لها محصول عنب الخمر

لمرض "فيلوكسيرا" في فرنسا عملت جاهدة على ايجاد بديل للأراضي المتضررة في مستعمراتها خاصة الجزائر التي تم توسيع زرع الآلاف من الهكتارات من عنب الخمر، نفس الشيء نلاحظه بالنسبة للأزهار والبرتقال، حيث تعرض محصولها للأزهار في المغرب الأقصى(زهرة دوداماس) مرض الفطريات (Cryptogamiques) المثبط للإزهار، وهذا ما جعل بعض الأخصائيين يركز بل يشدد عل المحافظة على الوسط المنيعي الخالي من الأمراض سوآءا فطريات أو ذبابة الحوامض، أعادوا السبب في ذلك لعزلتها وبعدها عن بقية المناطق التي قد تحدث عدوى، والتي قد تنتقل عبر وسائل النقل أو الغرسات القادمة من المشاتل الأوربية، ومنه قامت باتخاذ التدابير اللازمة للوقاية بإقامة مصلحة للتطهير، أو التركيز على المشاتل المحلية كما ونوع[28].

الهدف الكبير من وراء هذه الزراعة تحقيق أرباح تجارية من جهة، ومن جهة أخرى ايجاد وسط ملائم لإنتاج البواكر من حوامض وكروم، اضافة إلى نقطة مهمة جدا كون أشجار الحوامض بالمنيعة تتصف بكبر حجمها ومذاقها الرفيع وارتفاع مردود الشجرة في السنة الواحدة، بل أكثر من ذلك ارتفاع معدل العصير الذي تحتويه في حالة ادخالها للمصانع ومن تمّ تهيئة مدينة المنيعة لأن تكون وسط مشجع وجالب للاستيطان الأوربي، وخطوة تخدم السياحة الفرنسية الصحراوية هذه الأخيرة التي لم تغفل عنها الحكومة الفرنسية الاستعمارية وهذا ما سنوضحه في النقطة الآتية.

ج-المشاريع السياحية الاستعمارية في المنيعة:

ركزت فرنسا على اعطاء المنيعة طابع سياحي مستغلة الامكانيات الطبيعية التي تتوفر عليها من مناظر طبيعية، بل حتى من حيث التخطيط العمراني، وتنظيم للشوارع وتزويدها بالمرافق كنزل "ترونس أتلنتيك" (Transatlantique) الذي كان يتمتع بطابع جمالي، ونزل روني مارسي، وكلها في وسط المدينة،

ورصدت مواقع زهرة الرمال المحيطة بها، والقصر القديم، ونقبت عن بقايا وسائل الانسان الأول، والتي جمعها في الأخير "الأب لوكلار"، والتي أصبحت فيما بعد النواة الأولى لمتحف عمومي وطني طبيعي، ألحقته الدولة الجزائرية بوزارة الثقافة، وأهم معلم سياحي متمثل في المتحف الذي أنشأه الكولونيل المتقاعد "أوجيراس".

- **متحف الكولونيل المتقاعد "أوجيراس(Colonel Augiras)"**[29]:

هذا الرجل العسكري المتقاعد صبّ كل معرفته بالشؤون الافريقية في هذا المتحف، وتفطن الى الاستثمار في مجال السياحة، فخصصت له الحكومة الفرنسية أرضا واسعة تتسع لأزيد من 50هكتار تمتد من قرب أراضي الكنيسة في منطقة بلبشير إلى حفر بلعباس، وقم بدوره إلى استغلالها كالآتي: بناء متحف كبير مقسم إلى أربعة حجرات كبيرة وكل حجرة مخصصة لغرض معين، فالأولى خصصت لمكتبة للمطالعة، والثانية لجميع الحيوانات الموجودة على مستوى افريقيا محنطة، والثالثة لجميع وسائل الصيد المستعملة في افريقيا قديما وحديثا، والرابعة لجميع الحشرات والزواحف الموجودة في افريقيا تم تجفيفها أو المحافظة عليها بطريقة علمية، وبالتالي كان هذا المتحف قبلة للسواح وللعلماء والطلبة الجامعيين من كل بقاع العالم الذين يرغبون في اجراء دراسات عن الصحراء الافريقية وافريقيا وهذا ما يعرف بالسياحة العلمية، والأمر الذي جلب هؤلاء توفر وسائل الراحة والاستجمام، "فأوجيراس" بنى خيام على الطراز الإفريقي والتي تسمى" زرايب كرون كوكو" وكل زريبة محاطة بالماء متصلة مع الأخرى بخندق تشكل في مجموعها مساحة مغطاة بالنبتات المائية توحي للزائر بأنه في غابة افريقية، وحقق" أوجيراس" مداخيل معتبرة من هذا الاستثمار[30].

خاتمة:

ممّا تقدم يمكن القول، بأن السياسة الفرنسية الاستعمارية تجاه مدينة المنيعة كانت لها انعكاسات عدّة ، تمثّلت في تحويلها إلى مركز مراقبة لكل التحركات الخاصة بسكان الصحراء عامة والثوار خاصة، كما أن سياستها الاقتصادية كانت موجّهة لخدمة الكولون والاقتصاد الفرنسي بصفة خاصة بصفة عامة، لأغراض دينية كنشر المسيحية، كما فعلت بحقول سانت جوزاف. أما الأهالي فقد تعرضوا للتهميش والاستغلال، وعانوا من ويلات الفقر والأمراض.

الهوامش والإحالات:

1- محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972مم، ص28.

2- كانت تسمى المنيعة قديما تاوريرت، وهي كلمة زناتية أو بربرية تعني الهضبة أو الجبل القليل الارتفاع (محصن وبعيد عن العدو)، ونفس التسمية نجدها في المغرب الأقصى (هضبة سيدي سماعيل) وسميت كذلك القليعة: حسب حما بلحا: سميت بهذا الاسم لعدم وجود استقرار سياسي: قائد يقلع قائد آخر، وهناك من يقول بسبب انتقال سكانها من أسفل إلى أعلى الجبل الذي بنيت به القلعة، فسميت بالقلعة، واسم المنيعة: سميت لكونها حصن منيع للهاربين (جماعة قتلوا أميرهم الهلالي بسبب تزويجه ابنته لأحد أمراء تلمسان)، انظر:

بلحاج الطالب حمه والزهار يحي: تاريخ مدينة المنيعة منذ نشأتها حتى الدخول الفرنسي لها، المنيعة، 1982م، ص1.

3-Broc Numa. Les Français face à l'inconnue saharienne رَحِمَهَاٱللَّهُ : géographes, explorateurs, ingénieurs (1830-1881) . In: Annales deGéographie. 1987, t. 96, n°535. pp. 302-338

وانظر كذلك:

بلحاج الطالب حمه والزهار يحي: تاريخ مدينة المنيعة منذ نشأتها حتى الدخول الفرنسي لها، المنيعة، 1982م، ص3.

4- ولد هنري دوفيريي سنة 1840م، درس التجارة في ألمانيا، تعلم اللغة العربية، كانا محبا للمغامرة والاستكشاف لذلك خصص زيارة للجزائر سنة 1857م وصل حتى مدينة الأغواط ثم عاد إلى بلده، ليعود في رحلة ثانية إلى الصحراء يوم 8 ماي 1859م انطلاقا من مدينة سكيكدة، انظر:

Broc Numa. Les Français face ...op.cit,p 302.

5- احميده عميراوي: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار مليلة، الجزائر،2009،ص103.

6- Geneviève Capot-Rey :L'Eau et le sol a El-Goléa : Revue Travaux de de l'institut de Recherches Sahariennes, université d'Alger, Tome XVII, 1er.2me semestre,1958,pp83-126.

7- محمد عبد الحليم بيشي: تطورات الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013،ص286.

8- أولاد حيمودة محمد بن الشيخ: استمارة خاصة بإطارات الثورة التحريرية، المنيعة، سنة2006،ص7.

9- احميده عميراوي: السياسة الفرنسية في ...،مرجع سابق،ص103.

10- خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871، الجزائر، ص24.

11- احميده عميراوي: السياسة الفرنسية في ....مرجع سابق،ص104.

12- Broc Numa. Les Français face ...op.cit,p306.

13- خديجة بقطاش: مرجع سابق،صص79-84.

14- المسغور أو المطورن بلغة الدارجة تعني الشخص الذي تخلى عن دينه واعتنق المسيحية.

15- الهامل بلحيران من مواليد 1937م يوم 12 مارس 2012م صباحا، نظمنا معه لقاء كشاهد عيان .

16- نفس شاهد عيان السابق.

17- Geneviève Capot-Rey :L'Eau et le sole...,op.cit,pp83-126

18- 11- La Mission Choisy :cf.t III p41.

19- القرقاز: كلمة زناتية، وهو وسيلة تستعمل لاستخراج الماء من البئر، مصنوع من خشبة طويلة مزودة بحبل في نهايته دلو لسحب الماء، والخشبة مثبتة على عمودين من الطوب أو الحجر.

20- La Mission Choisy :cf.t III.,p20

21-Geneviève Capot :op.cit ;p125.

22-حسب نظرة كوسكوف المكلف بدراسة الجانب الهدروغرافي التابع لمصلحة المياه والتهيئة الريفية (SHER) بالمنيعة سنة 1953: الجيب المائي المنيعي يتغدى من الأطلس الصحراوي وليس من العرق.

23-Geneviève Capot :op.cit ;p98.

24-Ibid,p 122.

25-أبو القاسم سعدالله: الحركة الوطنية الجزائرية،ج3، ط4، دار الغرب الاسلامي، بيرت، 1992م،ص,16

26-Congrès de la Rose et de L'Oranger au Sahara ,29 janvier 1930,a El-Goléa, Paris,1930,pp10-11.

27-Idem,p12.

28- Geneviève Capot, op.cit pp83-126

29-أجرينا مقابلة شفوية مع الشيخ الهامل بلحيران من موليد1937م يوم 12 مارس 2012م صباحا، كان أحد العمال في هذا المتحف مع السائق الخاص بأوجيراش المدعو "باغباغو" أصله من مدينة عين صالح ، ومازال الشيخ الهامل يتمتع بكل قدراته الصحية والعقلية، ومشهود له بسيرة حميدة وأعمال خيرية.

30-Geneviève Capot :op.cit ;p128.1